بعد مضي شهر على فتح المدارس :

متى تبدأ حرب التعليم الأهلية ؟

بقلم احمد الجبيلي

مضى شهر وبضعة ايام منذ دعت وزارة التربية الى فتح ابواب المدارس التي بقيت مغلقة خلال اشهر القتال . كان يوم الثاني من شباط الفائت هو الموعد الذي حددته الوزارة للعودة . وكان مقدرا — رسميا — ان تستغرق اعمال التسجيل والتنظيم وما شاكل اسبوعا واحدا وأن يطل يوم الاثنين ، في التاسع من الشهر نفسه ، والتلامذة جالسون على مقاعدالصفوف وقد نسوا القنص والخطف والقصف واخذوا يمعنون النظر — باجتهاد — في ثقل الماء النوعي او في صناعة الارجوان عند الفينيقيين .

رغم هذا التفاؤل — وهو ليس بكثير على فطنة الوزارة — ورغم انف الاذاعة ما زال الوف من التلامذة يقفون كل صباح امام ابواب المدارس ينتظرون نوبتهم لتقديم طلب الانتساب او للتسجيل . وما زالت القلة هي التي تدخل الى الصفوف ، اذا استثنينا مدارس لم تدر حولها رحى الحرب وبدأ الكدح فيها منذ تشرين .

وجوه وعلل ..

ولهذه الحالة وجوه وعلل كثيرة ، جميعها وثيق الصلة بالحرب الاهلية وبذيولها . لكن ابرز تلك الوجوه على الاطلاق ، هذه الغلبة الجديدة للتعليم الرسمي في المناطق التي شهدت القتال او سمعت اصداءه القريبة . فالعين لا تكاد تصدق ما تراه من زحام على ابواب المدارس الرسمية — الثانويات منها — على الاخص . وليست اسباب الزحام سرية .. بل هي تقدم نفسها دون غنج ، لمن يبدي رغبة في التعرف اليها .

اولا : ان الكثرة من الناس قد خرجت من الحرب وهي واقعة في العجز او مفلسة او واقفة على شفير الافلاس . لذا لا يحتمل هؤلاء ان يحدثهم احد عن أقساط المدارس الخاصة ، ولو كان آباؤهم من روادها السابقين .

ثانيا : ان عدد المدارس المتوافرة قد تقلص ، اما بفعل التدمير والنهب واما بفعل الافلاس او العجز — في حالة بعض المدارس الخاصة — واما بفعل انتقال السكان . ثمة مدارس لم تفتح لان ابوابها مخلوعة اصلا (كيف تفتح بابا مخلوعا ؟) .. لكن الخراب في البناء أمر لا يصعب تلافيه ، في معظم الحالات . المشكلة الكبرى هي ان بعض المدارس — وهي كثيرة — لم يعد يرتادها تلامذتها القدامى — او بعضهم.وذلك اما لانهم هجروا الحي الذي كانوا فيه ، وكانت معهم هذه المدارس .. واما لانهم كانوا يقصدون الى مدارس قائمة في احياء لم يعودوا « راغبين » في زيارتها . في الاشرفية والحازمية وفرن الشباك مدارس — خاصة ، في معظمها ، وغير مجانية — هجرها تلامذتها المسلمون ، وكانوا ، من قبل ، وافري العدد . في الطريق الجديدة صارت التلميذة المسيحية — في احدى الثانويات الرسمية — قطعا نادرا وموضع حفاوة تتراوح بين الهزل والجد . في النبعة مدارس — مجانية او رسمية — ما زالت مغلقة على اشباح المحاربين لان ثلاثة ارباع سكان الحي قد غادروه . الى اين ذهب هؤلاء والذين هم في حالتهم (او في حالة اسوأ .. شأن سكان الكرنتينا والدامور) ؟ ذهبوا الى مدارس الاحياء الاخرى او الى مدارس قرى التنزوح ، وهي رسمية في معظم الحالات . بل ان بعض القرى شهدت تأسيس دكاكين جديدة للتعليم احتفالا بالوافدين وسدا لعجز المدارس الرسمية عن استقبال جميع الزبائن . ما العمل ، ما دام اصحاب المدارس الخاصة قد نزحوا ، هم ايضا ، مع النازحين ؟

ريع السدود

ثالثا : كانت المدارس الخاصة — في قسم غفير منها هو القسم المجاني او الواسع الذمة في صدد ترفيع التلاميذ — تعيش من ريع السدود القائمة بين التلاميذ وابواب المدارس الرسمية . فهذه الاخيرة لا تقبل المعيدين ، في معظم الحالات . وتفرض على الجدد امتحانات دخول تتراوح — حسب الحاجة — بين السهولة والصعوبة. وتتضافر امتحاناتها النهائية وامتحانات الشهادات الرسمية على لفظ جيش عرمرم من التلامذة، كل عام ، الى خارج صفوفها . هؤلاء جميعا ينزلون في المدارس الخاصة — ذات الطابع « الشعبي » — على الرحب والسعة.

وهم ، متى نزلوا ، صعب عليهم الخروج لان العديد من هذه المدارس يرفض تزويدهم بالاوراق اللازمة للانتقال من مدرسة الى اخرى (شهادة انجاح ، شهادة حسن السلوك ..) ما الذي يجري حين تقرر وزارة التربية ان تخرج — الى حد ما — على تقاليدها العريقة في التصفية ؟ يجري ما جرى هذا العام . اختل توازن السكان بين الاحياء ، وانقطعت حركة العبور من احياء الى اخرى ، فاختل التوازن بين المدارس الرسمية والمدارس الخاصة . ولما كان الطارئون الكثيرون على الاحياء والقرى لا يجدون امامهم سوى المدارس الرسمية، لم تملك وزارة التربيةالا ان تشرع لهم صفوفها خاصة وان « المنع » — بعد هذه الحرب — لم يعد ، مؤقتا ، من مواهب الدولة البارزة .. خاصة ايضا وأن الوف التلاميذ كانوا يحتلون بعض هذه المدارس ويسمونها « مدارس شعبية » قبل عودة الدولة اليها.. فلم يعد في وسع هذه الاخيرة ان تخرجهم منها ولا ان تمنع سواهم من القدوم . اضف الى ذلك ان اعلان نتائج الشهادات الرسمية قد تعثر ودخل في متاهة الخلافات التي يحفل بها البلد ..

(على الهامش : كان عدد المصححين الذين لبوا دعوة الوزارة الى ثانوية الاشرفية لانجاز تصحيح مسابقات البكالوريا الاولى ، نحو ثلاثين . وكانت الاذاعة اللبنانية — في

معرض الفخر بحماس الاساتذة الوطني — تضيف اليهم مئة من بنات مخيلتها .. ثم ذاب الثلج وبان المرج . رفض الكتائب السماح بنقل المسابقات من ثانوية الاشرفية، واقترحوا تزويد الاساتذة المتخوفين من الذهاب اليها بجوازات مرور صادرة عنهم . لكن الاساتذة المذكورين استنكفوا عن قبول الجوازات واعلنوا انهم لا يقبلون ان يصحح المسابقات اساتذة ينتمون الى « لون واحد » واقترحوا نقل مركز التصحيح الى مدرسة الاداب العليا ، واقترح البعض منهم الغاء الشهادة اصلا . اما الحجة في اختيار المكان الجديد فهي انه واقع على طريق الشام — حدود التقسيم ! .. هكذا يستطيع القادمون من بيروت الغربية ان يدخلوا اليه من بابه الغربي ، هذا بينما يدلف اساتذة بيروت الشرقية من الباب الشرقي ... وكانت النتيجة ان الوزارة الغت امتحانات القسم الاول من البكالوريا لهذا العام والغت معها امتحانات الشهادة المتوسطة ..) انتهى المهامش .

نوجز : كانت طريق المدارس الرسمية، دون سواها ، سالكة امام رواد جدد ، سلكوها راضين او مضطرين . أما الراضون فهم اولئك الذين كانت تحول بينهم وبين المدارس الرسمية حواجز بينها عدم توافر هذه المدارس اصلا في احياء هجروها هذه السنة . وقد عمدت الوزارة ، تحت وطأة الظروف الى فتح ثغرات ذات شأن في هذه الحواجز . وأما المضطرون فهم اولئك الذين كانوا يقصدونها من قبل .. والنتيجة أننا وصلنا الى الحالة التي لا بد أن تنشأ حين تتراخى قيود التصفية . ولم يصحب هذا التراخي اي انفراج في الهيكل التعليمي الذي ما اعد في الاصل الا لاستقبال حالة الضمور الملازمة للتصفية .

فرس حاتم

ذلك أن الضيوف الجدد كانوا ينتظرون من الوزارة — بعد أن اسفرت عن وجه حاتم انطائي — أن تذبح لهم فرسا اصيلا على الاقل .. فكان ان أولمت لهم حمارة جرباء .. صحيح ان التسجيل بطيء ، على عادته، وأن الناس يروحون ويغدون مرارا الى المدرسة قبل أن يتسلموا ايصال التسجيل المبارك . لكن المهل تتحدد اسبوعا بعد اسبوع والتلامذة سيل متجدد التدفق .. البعض منهم بدأ يطرح الاسئلة التي يفرزها وضع التعليم بغزارة هذا العام . والبعض الاخر سوف يطرح الاسئلة نفسها بعد يومين او عشرة ايام .

اولا — من سيتولى تدريس الوافدين الجدد ؟ تلك مشكلة يزيدها حدة ان الهيئة التعليمية الرسمية قد نقصت عوض ان تزيد. لم يعين حتى الان معلمون جدد يتلقون العبء الذي القاه على كاهل التعليم الرسمي، انكماش التعليم الخاص والزيادة الطبيعية في عدد التلاميذ . خريجو كلية التربية انفسهم ما زالوا بلا تعيين . جرى الحديث عن التعاقد الداخلي مع معلمي كل مدرسة بحيث يزداد عدد الساعات التي يقضونها في مدرستهم كل اسبوع . لكن شيئا من هذا القبيل لم يقر ، حتى الان وهو اذا اقر لا يكفي . جرى الحديث عن الغاء ساعات « التنسيق » . لكن مدراء الثانويات يحتجون سلفا على هذا الاجراء لانه يلقي على كواهلهم وحدهم عبء مراقبة التعليم في مدارس تضاعف حجمها . ثم ان الاجراء نفسه بائس من حيث عدد الساعات التي يستطيع توفيرها للتدريس الفعلي . أما علة النقص المطلق في عدد المعلمين الرسميين فهو ان مدارس الكثيرين منهم كانت تقع في احياء باتوا ، اليوم يعتبرونها خطرة عليهم. معظم هؤلاء ما زالوا يقبعون في بيوتهم الى اليوم . هذا عدا الذين لم تفتح مدارسهم اصلا بسبب الخراب . كان بعضهم قد التحق بمدرسة جديدة اختارها بعد استئذان ادارته. لكن مدير الوزارة العام ما لبث ان اقفل في وجوههم هذا الباب — ما عدا حالات قليلة — معتبرا ان هذا المسلك هو التقسيم التربوي بعينه . ولم يكن امام المعلمين الذين ضبطوا وهم يرتكبون التقسيم الا ان يعلنوا التوبة ويعودوا الى البيت، منتظرين اشعارا بعودة الوحدة الى البلد . هذا والنقص في الثانويات يتركز على اساتذة السنوات الاخيرة . فقد ادى الغاء البكالوريا الاولى والشهادة المتوسطة الى نفخ الصفين الاول والثالث المتوسط نفخا عظيما ، في العديد من الثانويات ، كنت تعثر على عشرة

المدارس : اية سنة دراسية ؟

البقية على صفحة ٣٤

تتمة صفحة ٨ - ٩

تلاميذ أو عشرين في صف الفلسفة ، خلال العام الماضي . هذه السنة يصل التعداد الى مائتين .. ويزيد . هذا يعني انه لا بد من اساتذة يملكون بعض التجربة . فما بالك والدولة تستنكف حتى عن تعيين آنذين يفتقرون الى الخبرة اطلاقا ..

متى واين وماذا ؟

ثانيا : متى يتعلم التلامذة ؟ ها هنا ايضا نقع على وضع عجب . ثمة مدارس كثيرة — في المناطق التي لم يحتدم فيها القتال — باشرت التدريس منذ تشرين . وثمة مدارس اخرى وجدت بضعة ايام ، بين تشرين وشباط ، سجلت خلالها تلاميذها القدماء ، ثم جعلتهم «شعبا» مستقلة وفتحت لهم ابواب الصفوف منذ اوائل الشهر الماضي. وثمة تلامذة قبعوا بضعة اسابيع — على الاقل — في « المدارس الشعبية » . وثمة اخرون ما زالوا ابكارا — هذا العام — خرجوا لتوهم من خدور الحرب الاهلية . وثمة، في المدرسة الواحدة ، صفوف بدأت قبل اشهر وصفوف لن تفتح الا بعد اسبوع او اكثر . هل يجري تمديد السنة الدراسية حتى اب مثلا ، فتكون سنة الاولين قد بلغت احد عشر شهرا وسنة الاخرين لم تتجاوز الاشهر الاربعة او الخمسة ؟ ثم متى تجري الامتحانات الرسمية ؟ بين اب وايلول ؟ لكن تلامذة — لعلهم الاكثرية — يكونون قد انهوا البرامج المقررة منذ ايار وبدأوا ينسون ما تعلموه ، هذا بينما تكون انفاس الاخرين قد تقطعت ولما يبلغوا نقطة الختام ، الخ ، الخ ..

ثالثا : اين سيتعلم التلامذة ؟ لندع جانبا مشكلة المدارس المخربة التي بقيت مغلقة . ثمة مشكلة تطرحها كثرة التلاميذ في المدارس المفتوحة ، وهي تستوجب معالجة عاجلة . حين يقرب عدد التلامذة من ضعف ما كان عليه في العام الماضي ، يجري اعتماد نظام الدوامين ، وذلك حل لا بأس به ، لولا انه يواجه معضلة النقص في الهيئة التعليمية . لكن ثمة مدارس تجاوزت الزيادة فيها هذا الحد . ثم ان ثمة مدارس اخرى تعتمد نظام الدوامين ، على أي حال منذ سنة او اكثر. وقد كان عدد التلامذة في كل منها يملأ مدرستين ، فعلا ، فصار يملأ اربعة . ماذا تفعل الادارات حيال هذا الوضع . تطلب من التلامذة احضار مقاعد من بيوتهم .. والغرف ؟ تواصل الادارات التسجيل ! ..

رابعا : ماذا سيتعلم التلامذة ؟ ليس هذا مجال البحث في مضمون التعليم ولا في صلته بالوضع الذي انتهت اليه البلاد. السؤال يتناول مشكلة اكثر التصاقا بالارض هي مشكلة الكتب . فمن الكتب ما هو مفقود ومنها ما يتصف بغلاء مبرح . بعض الدور لم تنشر شيئا هذا العام وبعض المكتبات احترقت ، والاحتكار على اشده . « المركز التربوي » الذي وضع يده على كتب موضوعة حسب المناهج الجديدة واخذ يصدر جزءا من السلسلة كل عام مع ترفع التلاميذ ، لم ينجز ما وعد به ، هذه السنة . اما الغلاء فيصير اشد ايلاما حين يدرك التلميذ

المعلمون : بين الزيادة والنقصان ..

— عدا ادراكه لضائقة والديه — ان كتاب الفلسفة العامة ، مثلا (وثمنه ٤٥ ليرة) لن ينفعه الا اربعة اشهر . من غير اصحاب النعمة ، « يستاجر » كتابا باحدى عشرة ليرة كل شهر ؟ ثم ان الفرز « الطبيعي » الذي كان يحدد لكل مدرسة « مستوى » معروفا ، قد غاب هذه السنة او كاد . فرواد المدارس اليسوعية سابقا قد جاء بعضهم ، هذه السنة ، الى الرمل الظريف ومعهم رواد اخرون — اخرون جدا ! — من مجانيات النبعة ، ومعهم ايضا تلاميذ الظريف القدماء الخ .. اين يقع اذن « مستوى » الظريف هذا العام ؟ أهو مستوى يسوعية الجميزة أم مستوى مدرسة علي عجمي في برج حمود ؟ للسؤال أهميته لانه سوف يطرح كل ساعة على اساتذة المدرسة. ولن يعرف هؤلاء — حسب العبارة الفرنسية — على أية قدم يرقصون . بل ان الحرب قد منت على بعض اطفال المسلخ هذه السنة — بين نعمها الاخرى الكثيرة — بدخول مدرسة الراهبات الكرمليات في شارع فردان !..

ثم ان هناك ، فوق هذا كله ، حالة التقسيم في المدارس ..

طبيعي ، والحالة هذه ، ان يشاع ان جهاز وزارة التربية الاداري قد دهمه امتعاض شديد حين قرر مجلس الوزراء الغاء مفعول الشهادتين الرسميتين هذه السنة وقبول جميع المتقدمين الى المدارس الرسمية بعد استئناف العام التعليمي . كان الجهاز يعرف وضع قاعدة التعليم المادية ولم تكن تستوقفه الدوافع السياسية التي حفزت قرار الحكومة . طبيعي ايضا أن يردد بعض الموظفين ان الثانويات الرسمية التي ظلت مغلقة حتى الشهر الماضي لن تفتح هذا العام .. رغم جميع الظواهر .

ذلك ان الوزارة مسكينة . وهي قد كانت دائما وزارة يرثى لها بما في ذلك ايام الغاز المسيل للدموع . ومن التجني — هذه السنة ، على الاخص — ان ننسب اليها القدرة على حسم المشكلات الآنفة الذكر ببضع قرارات . هل كان في وسعها بناء مدارس جديدة أو اصدار كتب جديدة خلال العام الماضي ؟ هل يسعها اجراء تشكيلات للهيئة التعليمية تكرس التقسيم التربوي، وهل يسعها — اذا امتنعت — فتح مدارس تضاعف تلاميذها وما زال ربع معلميها او خمسهم يلازمون البيوت ؟ وهل يسع دولة شبه مفلسة تتولى شؤون بلد مدمر — او تتظاهر بتوليها — ان تبادر اليوم الى تعيين الفي معلم جديد ؟ وما الذي تملكه الدولة حيال التقسيم التربوي ، حيال البؤس الفظيع المتجلي في ترحيب بنات الطريق الجديدة بالزميلة المسيحية ؟ يستطيع اي كان ان يذكرنا — محقا — بقصور الدولة التاريخي لكنه يخطيء اذا حسب اننا نريد الدفاع عن الدولة هنا . فهذا ، والله ، اخر همومنا . ما اردنا قوله هو ان حساب الربح والخسارة في الحرب الاهلية ، لا بد له — حين يتوخى الامانة — من احصاء امور لا تعالج بالمراسيم ولا بالقوانين ولا بـ « الوثيقة الدستورية » . ماذا حل بعلاقات السكن ، وماذا حل بعلاقات العمل وماذا حل بعلاقات التعليم ، الخ .. ؟ من شأن هذا الحساب — دون سواه — ان يقيس قيمة الاهداف السياسية وأن يحدد وقع البرامج على هذا المجتمع . ومن شأنه ايضا ان ان يسحب من ظلمة العمى الساند بعض ملامح المستقبل .

وبعد ، ما لنا وللسياسة ! ولنعد الى ما ستشهده المدارس . فلم يعد بعيدا ذلك اليوم الذي سيقف فيه مدير هذه المدرسة او تلك ، متوكئا — لفرط — الرعب — على ناظرين أو ثلاثة ، ليعلن اعتذاره عن قبول نصف التلامذة الذين سجلهم في مدرسته، او اقل او اكثر . بعد هذا الاعلان الرهيب سينظر المدير الى التلامذة في عيونهم ثم يطلق ساقيه للريح هو والنظار والمعلمون، لان التلامذة قد فقدوا ، اثناء الحرب ، عادة الاضراب السلمي ! ..